

شَرْحُ مَنْظُومَةٍ

مَحَبَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ

وَالْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لَهَا

مِنْ كَلَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

«لَيْسَ لِلْقَلْبِ وَالرُّوحِ أَلَنٌ وَلَا أَطْيَبُ، وَلَا أَهْلَى، وَلَا أَنْعَمُ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى،

وَالِإِقْبَالِ عَلَيْهِ، وَعِبَادَتِهِ وَحَدِّهِ، وَفُرَّةِ الْعَيْنِ بِهِ، وَالْأُنْسِ بِقُرْبِهِ، وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ

وَرُؤْيَاهُ، وَإِنَّ مَقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ هَذِهِ اللَّذَّةِ لَا يُعَدُّ بِأَمْتَالِ الْجِبَالِ مِنْ لَذَاتِ الدُّنْيَا»

رَوْضَةُ الْمُحِبِّينَ (ص ٢٤٦)

لَنَا ظِمُّهَا

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ ابْنِ طَوْقٍ الْمُرِّيَّ

## بسم الله الرحمن الرحيم

- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ نَوَّرَا (١) قُلُوبَ مَنْ لِحُبِّهِ قَدْ شَمَّرَا
- ثُمَّ الصَّلَاةُ بَعْدُ وَالسَّلَامُ (٢) عَلَى الَّذِي انْجَلَى بِهِ الظَّلَامُ
- أَكْرَمَ خَلْقِ اللَّهِ طُرًّا مَحْتِدَا (٣) نَفْسِي وَأُمِّي وَأَبِي لَهُ الْفِدَا
- هَذَا وَحُبُّ الْمَلِكِ الْفَتَّاحِ (٤) قُوْتُ الْقُلُوبِ وَغِذَا الْأَزْوَاحِ
- وَأَهْلُهُ فِي أَطْيَبِ الْحَيَاةِ (٥) وَغَيْرُهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ
- تَاللَّهِ قَدْ فَازَ الْمُحِبُّ بِالشَّرَفِ (٦) وَحَازَ فِي الْأُخْرَى أَعَالِي الْغُرَفِ
- (مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِهِ الْمُدَلِّلِ (٧) يَمْشِي رُؤَيْدًا وَيَجِي فِي الْأَوَّلِ)
- فَانْهَضْ أَخِيَّ وَادْلِجْ وَأَسْجِرَا (٨) (عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرِيَّ)
- وَهَاكَ عَشْرَةٌ بِهَا تَرْقَى إِلَى (٩) مَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ جَلٍّ وَعَلَا
- مِنْ دُرَرِ الْعَلَامَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ (١٠) فِي سِلْكِ هَذَا الرَّجَزِ الْمُتَمِّمِ
- تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ سَبَبٍ (١١) <sup>٢</sup>تَقَرُّبٍ بِالنَّفْلِ بَعْدَ مَا وَجَبَ
- دَوَامُ ذِكْرِهِ بِكُلِّ حَالٍ (١٢) <sup>٣</sup>بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْأَعْمَالِ

- ٤ إِيثَارُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ عَلَى (١٣) مَا تَرْغَبُ النَّفْسُ بِهِ وَإِنْ حَلَا
- ٥ شُهُودُ قَلْبِكَ جَلَالَ الرَّبِّ (١٤) وَبِرَّهُ كَذَا انْكِسَارُ الْقَلْبِ
- ٨ وَخُلُوءٌ وَقْتَ نُزُولِ اللَّهِ (١٥) صُحْبَةُ كُلِّ صَادِقٍ أَوَّاهِ
- ١٠ وَالْبُعْدُ عَنْ كُلِّ الَّذِي يَحُولُ (١٦) فَهَذِهِ عَشْرٌ بِهَا الْوُصُولُ
- طُوبَى لِعَبْدٍ مُخْبِتٍ لِرَبِّهِ (١٧) قَدْ مَلَأَ الْحُبُّ شَغَافَ قَلْبِهِ
- بَاحٍ بِمَا فِي صَدْرِهِ طَوَاهُ (١٨) إِلَى الَّذِي لَا يُرْتَجَى سِوَاهُ
- يُذِيعُ دَمْعُ الْعَيْنِ مَا فِي رُوعِهِ (١٩) وَيَكْشِفُ الْمَكْنُونِ فِي ضُلُوعِهِ
- كَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدٍ بَائِسٍ (٢٠) يَنْدُبُ سُعْدَى عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ
- حَدَا بِكَ الْحَادِي فَقُلْ: لَبَّيْكَ (٢١) إِنِّي إِلَهِي تَائِبٌ إِلَيْكَ
- يَا رَبِّي ارْزُقْنَا تَمَامَ حُبِّكَ (٢٢) وَهَبْ لَنَا مَا نَرْتَجِي مِنْ قُرْبِكَ
- وَاعْفِرْ لَنَا وَعَافِنَا مَوْلَانَا (٢٣) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي أُخْرَانَا
- قَدْ انْتَهَى بِحَمْدِ رَبِّي نَظْمِي (٢٤) وَبِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ خَتْمِي



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ نَوَّرَا (١) قُلُوبَ مَنْ لِحُبِّهِ قَدْ شَمَّرَا  
ثُمَّ الصَّلَاةُ بَعْدُ وَالسَّلَامُ (٢) عَلَى الَّذِي انْجَلَى بِهِ الظَّلَامُ  
أَكْرَمَ خَلْقِ اللَّهِ طُرًّا مَحْتِدَا (٣) نَفْسِي وَأُمِّي وَأَبِي لَهُ الْفِدَا  
هَذَا وَحُبُّ الْمَلِكِ الْفَتَّاحِ (٤) قُوْتُ الْقُلُوبِ وَغِذَا الْأَرْوَاحِ

«مِنْ منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: منزلةُ المحبة.

وهي المنزلة التي فيها يتنافس المتنافسون، وإليها شَخَصَ العاملون، وإلى عِلْمِهَا شَمَّرَ السَّابِقُونَ، وعليها تَفَانَى الْمُحِبُّونَ، وَبِرُوحِ نَسِيمِهَا تَرَوَّحَ الْعَابِدُونَ. فهي قُوْتُ الْقُلُوبِ، وَغِذَا الْأَرْوَاحِ، وَقُرَّةُ الْعْيُونِ» (١).

«وليس للقلب لَذَّةٌ وَلَا نَعِيمٌ وَلَا فَلَاحٌ وَلَا حَيَاةٌ إِلَّا بِهَا، وَإِذَا فَقَدَهَا الْقَلْبُ كَانَ أَلَمُهُ أَعْظَمَ مِنْ أَلَمِ الْعَيْنِ إِذَا فَقَدَتْ نُورَهَا، وَالْأُذُنُ إِذَا فَقَدَتْ سَمْعَهَا، وَالْأَنْفُ إِذَا فَقَدَتْ شَمَمَهَا، وَاللِّسَانُ إِذَا فَقَدَ نُطْقَهُ، بَلْ فَسَادُ الْقَلْبِ إِذَا خَلَا مِنْ مَحَبَّةِ فَاطِرِهِ وَبَارِئِهِ وَإِلَهِهِ

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٦٥).

الحقُّ أعظمُ من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا أمر  
لا يصدق به إلا من فيه حياة»<sup>(١)</sup>.

وَأَهْلُهُ فِي أَطْيَبِ الْحَيَاةِ (٥) وَغَيْرُهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَاتِ

«وهي الحياة التي من حُرْمِهَا فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فَقْدِهِ ففي  
بحار الظُّلُمَاتِ، والشفاء الذي من عَدَمِهِ حَلَّتْ بقلبه جميعُ الأسقام، واللذة التي  
مَنْ لَمْ يَظْفَرْ بِهَا فَعِيشُهُ كُلُّهُ هُمُومٌ وَأَلَامٌ»<sup>(٢)</sup>.

«ليس للقلب والروح ألذُّ، ولا أطيبُّ، ولا أحلى، ولا أنعمُ من محبةِ الله، والإقبالِ  
عليه، وعبادته وحده، وقرّة العين به، والأنسِ بقربه، والشوقِ إلى لقائه ورؤيته،  
وإنَّ مثقالَ ذرّةٍ من هذه اللذة لا يُعَدَّلُ بأمثال الجبال من لذات الدنيا»<sup>(٣)</sup>.

«ومتى رأيت القلبَ قد تَرَحَّلَ عنه حُبُّ الله والاستعدادُ للقاءه وحلَّ فيه حُبُّ  
المخلوق والرِّضا بالحياة الدُّنيا والطمأنينةُ بها فاعلم أنه قد خُسِفَ به»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) الداء والدواء (ص ٥٤٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٦٥).

(٣) روضة المحبين (ص ٢٤٦).

(٤) بدائع الفوائد (٣/ ٢٢٤).

تَاللّٰهِ قَدْ فَازَ الْمُحِبُّ بِالشَّرَفِ (٦) وَحَازَ فِي الْأُخْرَىٰ أَعَالِيَّ الْغُرَفِ

«تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب. وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب. فيا لها نعمة على المحبين سابغة!»<sup>(١)</sup>.

(مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِهِ الْمُدَلِّلِ (٧) يَمْشِي رُؤِيدًا وَيَجِي فِي الْأَوَّلِ)

«تالله لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفُرُش نائمون، ولقد تقدّموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَلِّلِ تَمْشِي رُؤِيدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ»<sup>(٢)</sup>

فَإِنْهَضَ أَخِيَّ وَادَّلَجَ وَأَسْحَرَ (٨) عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ السَّرِيَّ

«أجابوا مؤذن الشوق إذ نادى بهم: حيّ على الفلاح. وبذلوا أنفسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضا والسّماح. وواصلوا إليه المسير

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٦٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٦٦).

بالإدلاج والغدو والرواح. تالله لقد حمّدوا عند الوصول مسّراهم، وإنّما يحمّد  
القوم السرى عند الصّباح»<sup>(١)</sup>.

وَهَاكَ عَشْرَةٌ بِهَا تَرْقَى إِلَى (٩) مَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ جَلٍّ وَعَلَا  
مِنْ دُرَرِ الْعَلَامَةِ ابْنِ الْقِيَمِ (١٠) فِي سِلْكِ هَذَا الرَّجَزِ الْمُنَمِّ  
«فصلٌ في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها، وهي عشرة»<sup>(٢)</sup>.

تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ سَبَبٍ (١١) تَقَرُّبٌ بِالنَّفْلِ بَعْدَ مَا وَجَبَ  
«أحدها: قراءة القرآن بالتدبُّر والتّفهُم لمعانيه وما أريد به، كتدبُّر الكتاب الذي  
يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه»<sup>(٣)</sup>.

«تأمل خطاب القرآن، تجد ملكاً له الملك كله، وله الحمد كله، أزمّة الأمور كلّها  
بيديه، ومصدرها منه، ومردّها إليه، مستويّاً على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافيةٌ  
في أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مُطَّلِعاً على إسرارهم وعلاّنيّتهم،  
منفرداً بتدبير المملكة، يسمعُ ويرى، ويُعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرمُ

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٦٦).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٨١).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٣٨١).

وَيُهَيِّنُ، وَيَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُمِيتُ وَيُحْيِي، وَيَقْدَرُ وَيَقْضِي وَيُدَبِّرُ، الْأُمُورُ نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِهِ دَقِيقُهَا وَجَلِيلُهَا، وَصَاعِدَةٌ إِلَيْهِ، لَا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَسْقُطُ وَرَقَةٌ إِلَّا بِعِلْمِهِ.

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ تَجِدُهُ يُثْنِي عَلَى نَفْسِهِ، وَيُمَجِّدُ نَفْسَهُ، وَيَحْمَدُ نَفْسَهُ، وَيَنْصَحُ عِبَادَهُ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ عَلَى مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ وَفَلَاحُهُمْ، وَيُرْغِبُهُمْ فِيهِ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِمَّا فِيهِ هَلَاكُهُمْ، وَيَتَعَرَّفُ إِلَيْهِمْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيَتَحَبَّبُ إِلَيْهِمْ بِنِعْمِهِ وَأَلَانِهِ؛ فَيُذَكِّرُهُمْ بِنِعْمِهِ عَلَيْهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ بِمَا يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ تَمَامَهَا، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ نِقَمِهِ وَيُذَكِّرُهُمْ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ إِنْ أَطَاعُوهُ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ إِنْ عَصَوْهُ، وَيُخَبِّرُهُمْ بِصَنْعِهِ فِي أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، وَكَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، وَيُثْنِي عَلَى أَوْلِيَائِهِ بِصَالِحِ أَعْمَالِهِمْ، وَأَحْسَنِ أَوْصَافِهِمْ، وَيَذَمُّ أَعْدَاءَهُ بِسَيِّئِ أَعْمَالِهِمْ وَقَبِيحِ صِفَاتِهِمْ، وَيَضْرِبُ الْأَمْثَالَ، وَيُنَوِّغُ الْأَدْلَةَ وَالْبَرَاهِينَ، وَيُجِيبُ عَنْ شُبْهِ أَعْدَائِهِ أَحْسَنَ الْأَجُوبَةِ، وَيُصَدِّقُ الصَّادِقَ، وَيَكْذِبُ الْكَاذِبَ، وَيَقُولُ الْحَقَّ، وَيَهْدِي السَّبِيلَ، وَيَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَيَذْكُرُ أَوْصَافَهَا وَحُسْنَهَا وَنَعِيمَهَا، وَيُحَذِّرُ مِنْ دَارِ الْبَوَارِ وَيَذْكُرُ عَذَابَهَا وَقَبَحَهَا وَأَلَامَهَا، وَيُذَكِّرُ عِبَادَهُ فَقْرَهُمْ إِلَيْهِ وَشِدَّةَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَأَنَّ لَهُمْ لَا غِنَى لَهُمْ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيَذْكُرُ غِنَاهُ عَنْهُمْ وَعَنْ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ بِنَفْسِهِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ،

وأنه لا ينالُ أحدُ ذرَّةٍ من الخير فما فوقها إلا بفضلِهِ ورحمته، ولا ذرَّةٍ من الشر فما فوقها إلا بعدلِهِ وحكمته.

وَيَشْهَدُ مِنْ خِطَابِهِ عِتَابُهُ لِأَحْبَابِهِ الْطَفَّ عِتَابٍ، وأنه مع ذلك مُقِيلٌ عَثَرَاتِهِمْ، وَغَافِرٌ زَلَّاتِهِمْ، وَمُقِيمٌ أَعْذَارَهُمْ، وَمُصْلِحٌ فُسَادَهُمْ، وَالِدَافِعُ عَنْهُمْ، وَالْمُحَامِي عَنْهُمْ، وَالنَّاصِرُ لَهُمْ، وَالْكَفِيلُ بِمَصَالِحِهِمْ، وَالْمُنْجِي لَهُمْ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ، وَالْمُوفِي لَهُمْ بِوَعْدِهِ، وَأَنَّهُ وَلِيُّهُمْ الَّذِي لَا وَلِيَّ لَهُمْ سِوَاهُ؛ فَهُوَ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ، وَنَصِيرُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ؛ فَنَعْمَ الْمَوْلَى وَنَعْمَ النَّصِيرُ.

فَإِذَا شَهِدَتْ الْقُلُوبُ مِنَ الْقُرْآنِ مَلَكًا عَظِيمًا رَحِيمًا جَوَادًا جَمِيلًا هَذَا شَأْنُهُ، فَكَيْفَ لَا تُحِبُّهُ، وَتُنَافِسُ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ، وَتُنْفِقُ أَنْفَاسَهَا فِي التَّوَدُّدِ إِلَيْهِ، وَيَكُونُ أَحَبَّ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَرِضَاهُ أَثَرٌ عِنْدَهَا مِنْ رِضَى كُلِّ مَا سِوَاهُ؟! وَكَيْفَ لَا تَلْهَجُ بِذِكْرِهِ، وَيَصِيرُ حُبُّهُ وَالشَّوْقُ إِلَيْهِ وَالْأُنْسُ بِهِ هُوَ غِذَاءُهَا وَقُوَّتُهَا وَدَوَاءُهَا؛ بَحِيثٌ إِنْ فَقَدَتْ ذَلِكَ، فَسَدَتْ وَهَلَكَتْ وَلَمْ تَتَنَفَّعْ بِحَيَاتِهَا؟!»<sup>(١)</sup>.

«وبالجملة؛ فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير؛ فإنه جامعٌ لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورثُ المحبةَ والشوقَ والخوفَ والرجاءَ والإنابةَ والتوكلَ والرضاَ والتفويضَ والشكرَ

---

(١) الفوائد (ص ٣٩-٤١).

والصبرَ وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو عَلِمَ الناسُ ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكير حتى مرَّ بآيةٍ هو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مئة مرَّة، ولو ليلة؛ فقراءة آيةٍ بتفكيرٍ وتفهمٍ خيرٌ من قراءة ختمَةٍ بغير تدبرٍ وتفهمٍ، وأنفعُ للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوقِ حلاوة القرآن» (١).

«قاعدة جليلة: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضوراً من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧) ﴿ق: ٣٧﴾» (٢).

«الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها تُوصِلُه إلى درجة المحبوبة بعد المحبة» (٣).

دَوَامُ ذِكْرِهِ بِكُلِّ حَالٍ (١٢) بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْأَعْمَالِ

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٥٣٥).

(٢) الفوائد (ص ٣).

(٣) مدارج السالكين (٣ / ٣٨٢).

«**الثالث:** دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب والعمل والحال. فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر»<sup>(١)</sup>.

«وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلاؤها، وكلما ازداد الذكر في ذكره استغراقاً ازداد لمذكوره محبةً وإلى لقائه اشتياقاً، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضاً من كل شيء»<sup>(٢)</sup>.

«أنه يورثه<sup>(٣)</sup> المحبة التي هي روح الإسلام، وقطب رحي الدين، ومدار السعادة والنجاة، وقد جعل الله لكل شيء سبباً، وجعل سبب المحبة دوام الذكر؛ فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل فليلج بذكره، فإن الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم، فالذكر باب المحبة، وشارعها الأعظم، وصراطها الأقوم»<sup>(٤)</sup>.

إِثَارُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ عَلَى (١٣) مَا تَرَعِبُ النَّفْسُ بِهِ وَإِنْ حَلَا

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٢).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٠٨).

(٣) في كلامه عن فوائد الذكر أي أن الذكر يورث الذكر.

(٤) الوابل الصيب (ص ٩٥).

«الرَّابِع: إِيثار مَحَابَّه على مَحَابِّكَ عند غلبات الهوى، والتَّسَنُّمُ إلى مَحَابَّه وإن صَعُبَ المَرْتَقَى»<sup>(١)</sup>.

«ما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمنَ بمحبة الشهوات والمعاصي وميلِ نفسه إليها؛ إلا لِيَسُوِّقَه بها إلى محبَّة ما هو أَفْضَلُ منها وخَيْرٌ له وأنْفَعُ وأدومُ، وليُجَاهِدَ نَفْسَه على تركها له سبحانه، فتورثه تلك المجاهدةُ الوصولَ إلى المحبوب الأعلى؛ فكلَّما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدَّت إرادته لها وشوقه إليها؛ صَرَفَ ذلك الشوق والإرادة والمحبَّة إلى النوع العالي الدائم، فكان طلبه له أشدَّ، وحرصه عليه أتمَّ؛ بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك؛ فإنها وإن كانت طالبةً للأعلى، لكن بين الطالبين فرقٌ عظيم! ألا ترى أن من مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك أعظمُ ممَّن مشى إليه راكبًا على النجائب؟ فليس من أثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلى غيره؛ فهو سبحانه يبتلي عبده بالشَّهوات؛ إمَّا حجابًا له عنه، أو حاجبًا له يُوصِلُه إلى رضا وقُربِه وكرامَتِه»<sup>(٢)</sup>.

شُهُودُ قَلْبِكَ جَلالَ الرَّبِّ (١٤) وَبِرَّهْ كَذَا انكِسارُ الْقَلْبِ

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٢).

(٢) الفوائد (ص ١٦٠).

«الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلُّبه في رياض هذه المعرفة وميادينها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة. ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قُطَاعَ الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب»<sup>(١)</sup>.

«فإنَّ الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده، فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً منه سبحانه، ولا شيء أكمل منه ولا أجمل؛ فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه سبحانه، وهو الذي لا يُحدُّ كماله، ولا يوصف جلاله وجماله، ولا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه. وإذا كان الكمال محبوباً لذاته ونفسه وجب أن يكون الله هو المحبوب لذاته وصفاته، إذ لا شيء أكمل منه.

وكل اسم من أسمائه وصفة من صفاته تستدعي محبة خاصة، فإنَّ أسمائه كلّها حسنى، وهي مشتقة من صفاته، وأفعاله دالةٌ عليها، فهو المحبوب المحمود لذاته ولصفاته وأفعاله وأسمائه، فهو المحبوب المحمود على كلّ ما فعل، وعلى كل ما أمر؛ إذ ليس في أفعاله عبث، ولا في أوامره سفه. بل أفعاله كلّها لا تخرج عن

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٢).

الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة، وكلُّ واحد من ذلك يستوجب  
الحمد والثناء والمحبة عليه. وأوامره كلها مصلحة تستوجب الحمد والثناء  
والمحبة عليها. وكلامه كله صدق وعدل، وجزاؤه كله فضل وعدل؛ فإنه إن  
أعطى فبفضله ورحمته ونعمته، وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته.

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ      كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ  
إِنْ عَذَّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نَعَّمُوا      فَبِفَضْلِهِ، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

ولا يتصور بشرُّ هذا المقام حقَّ تصوّره فضلاً عن أن يوفّيه حقّه. فأعرَفُ خلقه به  
وأحبُّهم له يقول: «لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك»<sup>(١)</sup>. ولو  
شَهِدَ العبدُ بقلبه صفةً واحدةً من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة  
عليها. وهل مع المحبين محبةٌ إلا من آثار صفات كماله؟ فإنَّهم لم يروه في هذه  
الدار، وإنَّما وصل إليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعه، فاستدلّوا بما علموه على  
ما غاب عنهم، وإلا فلو شاهدوه ورأوا جلاله وكمالَه وجماله سبحانه لكان لهم  
في حبه شأنٌ آخر.

وإنَّما تفاوتت مراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به،  
فأعرفُهم له أشدُّهم حبًّا له. ولهذا كانت رسله صلوات الله وسلامه عليهم أعظم

---

(١) أخرجه مسلم في «الصحیح» (٤٨٦).

الناس حبًّا له، والخليلان من بينهم أعظمهم حبًّا، وأعرفُ الأمةِ به أشدُّ له حبًّا من غيره»<sup>(١)</sup>.

«وكمالُ المحبةِ تابعٌ لكمالِ المحبوبِ في نفسه، واللهُ سبحانه له الكمالُ المطلقُ التَّامُّ من كلِّ وجه، الذي لا يعتريه توهُّمٌ نقصٍ أصلاً، ومَن هذا شأنه فإنَّ القلوبَ لا يكونُ شيءٌ أحبَّ إليها منه ما دامت فطرُها وعقولُها سليمةً»<sup>(٢)</sup>.

«السادس: مشاهدة برِّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنَّها داعيةٌ إلى محبَّته»<sup>(٣)</sup>.

«فإنَّ القلوبَ جُبلت على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها. وبُغِضِ مَنْ أَسَاءَ إليها، ولا أحدٌ أعظمَ إحساناً من الله سبحانه، فإنَّ إحسانه على عبده في كلِّ نفسٍ ولحظةٍ، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلاً عن أنواعه أو عن أفرادِه. ويكفي أنَّ مَنْ بعض أنواعه نعمة النفس التي لا تكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة، فإنَّه يتنفس في اليوم واللييلة أربعة وعشرين ألف نفسٍ، وكلِّ نفسٍ نعمة منه

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٩٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٨١).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٢).

سبحانه. فإذا كان أدنى نعمة عليه في كل يوم وليلة أربعة وعشرون ألف نعمة، فما الظنّ بما فوق ذلك وأعظم منه؟ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم/ ٣٤، النحل/ ١٨].

هذا إلى ما يصرف عنه من المضرات وأنواع الأذى التي تقصده، ولعلّها توازن النعم في الكثرة، والعبد لا شعور له بأكثرها أصلاً، والله سبحانه يكلّؤه منها بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء/ ٤٢] ... فهو سبحانه منعمٌ عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره. هذا مع غناه التام عنهم وفقيرهم التام إليه، فإنه سبحانه غنيٌّ عن خلقه من كلّ وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كلّ وجه.

وفي بعض الآثار يقول تعالى: «أنا الجواد، ومن أعظم منّي جوداً وكرماً؟ أبيتُ أكلاً عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظام»<sup>(١)</sup>.

وفي الترمذي أنّ النبي ﷺ لما رأى السحاب قال: «هذه رَوَايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يذكرونه، ولا يعبدونه»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨ / ٩٣) من قول الفضيل بن عياض بنحوه.

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٢٩٨) بنحوه وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

وفي الصحيحين عنه عليه السلام أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون له الولد، وهو يرزقهم ويعافيهم»<sup>(١)</sup>.

وفي بعض الآثار: «يقول تعالى: ابن آدم، خيري إليك نازل، وشركي إلي صاعد، كم أتحب إليك بالنعم، وأنا غني عنك! وكم تتبغض إلي بالمعاصي، وأنت فقير إلي! ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بعمل قبيح»<sup>(٢)</sup>.

ولو لم يكن من تحببه إلى عباده وإحسانه إليهم وبره بهم إلا أنه سبحانه خلق لهم ما في السماوات والأرض وما في الدنيا والآخرة، ثم أقللهم وكرمهم، وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وشرع لهم شرائعه، وأذن لهم في مناجاته كل وقت أرادوا. وكتب لهم بكل حسنة يعملونها عشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وكتب لهم بالسيئة واحدة، فإن تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة. وإذا بلغت ذنوب أحدهم عنان السماء ثم استغفره غفر له. ولو لقيه بقرباب الأرض خطايا، ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئاً، لأتاه بقربابها مغفرة<sup>(٣)</sup>. وشرع

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٠٩٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤ / ٢٧) عن وهب بن منبه قال: «قرأت في بعض الكتب فوجدت الله تعالى يقول: ...» وذكره.

(٣) يشير إلى ما أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٥٤٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله عليه السلام يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم

لهم التوبة الهادمة للذنوب، فوقّقهم لفعلها، ثمّ قبلها منهم. وشرع لهم الحجّ الذي يهدم ما قبله، فوقّقهم لفعله، وكفّر عنهم سيئاتهم به. وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات، هو الذي أمدهم بها، وخلقها لهم، وأعطاهم إياها، ورتّب عليها جزاءها. فمنه السبب، ومنه الجزاء، ومنه التوفيق، ومنه العطاء أولاً وآخرًا. وهم محلّ إحسانه فقط، ليس منهم شيء، إنّما الفضل كلّ والنعمة كلّها والإحسان كلّ منه أولاً وآخرًا. أعطى عبده ماله، وقال: تقرّب بهذا إليّ أقبّله منك. فالعبد له، والمال له، والثواب منه، فهو المعطي أولاً وآخرًا.

فكيف لا يُحبّ من هذا شأنه؟ وكيف لا يستحيي العبد أن يصرف شيئاً من محبته إلى غيره؟ ومن أولى بالحمد والثناء والمحبة منه سبحانه؟ ومن أولى بالكرم والجود والإحسان منه؟ فسبحانه وبحمده، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ويفرح سبحانه بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكملّه، ويكفر عنه ذنوبه، ويوجب له محبّته بالتوبة. وهو الذي ألهمه إياها، ووفّقه لها، وأعانه عليها. وملاً سبحانه سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض. واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين، والاستغفار لذنوبهم، ووقايتهم

---

إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»: قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

عذاب الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جنّاته. فانظر إلى هذه العناية، وهذا الإحسان، وهذا التحنن والعطف والتحبّب إلى العباد، واللفظ التام بهم!

ومع هذا كلّ بعد أن أرسل إليهم رُسُلَه، وأنزل عليهم كُتُبَه، وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه؛ ينزل كلّ ليلة إلى سماء الدنيا يسأل عنهم، ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مسيئهم إلى التوبة، ومريضهم إلى أن يسأله أن يشفيه، وفقيرهم إلى أن يسأله غناه، وذا حاجتهم يسأله قضاءها كلّ ليلة. ويدعوهم سبحانه إلى التوبة، وقد حاربوه، وعذبوا أوليائه، وأحرقوهم بالنار. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)﴾ [البروج / ١٠]. قال بعض السلف: انظروا إلى كرمه، كيف عذبوا أوليائه، وحرّقوهم بالنار؛ ثُمَّ هو يدعوهم إلى التوبة!

فهذا الباب يدخل منه كلّ أحد إلى محبته سبحانه، فإنّ نعمه على عباده مشهودة لهم، يتقلّبون فيها على عدد الأنفاس واللحظات. وقد روي في بعض الأحاديث مرفوعاً: «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّوا اللَّهَ بِحَبِّ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>. فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنّ والإحسان، ورؤية النعم والآلاء، وكلّما سافر القلب بفكره فيها ازدادت محبته وتأكّدت. ولا نهاية لها، فيقف سفر القلب عندها، بل كلّما

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٧٨٩) وقال: «هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه».

ازداد فيها نظرًا ازداد فيها اعتبارًا وعجزًا عن ضبط القليل منها، فيستدل بما عرفه على ما لم يعرفه»<sup>(١)</sup>.

«السابع: وهو من أعجبها، انكسار القلب بكليته بين يديه، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات»<sup>(٢)</sup>.

«ولا يُنال رضا المحبوب وقربه والابتهاج والفرح بالدنو منه والزلفى لديه إلا على جسرٍ من الذلّ والمسكنة، وعلى هذا قام أمرُ المحبة، فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلا بذلك»<sup>(٣)</sup>.

وَخَلْوَةٌ وَقْتَ نُزُولِ اللَّهِ (١٥) صُحْبَةُ كُلِّ صَادِقٍ أَوَّاهِ

«الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بين يديه. ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٨٥-٦٩٠).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٦٦).

(٤) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٢).

«التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطيب ثمرات كلماتهم كما تنتقي

أطيب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً

لحالك ومنفعة لغيرك» (١).

وَالْبُعْدُ عَنْ كُلِّ الَّذِي يَحُولُ (١٦) فَهَذِهِ عَشْرُ بِهَا الْوُصُولُ

«العاشر: مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على

الحبيب» (٢).

طُوبَى لِعَبْدٍ مُخْبِتٍ لِرَبِّهِ (١٧) قَدْ مَلَأَ الْحُبُّ شَغَافَ قَلْبِهِ

بَاحٍ بِمَا فِي صَدْرِهِ طَوَاهُ (١٨) إِلَى الَّذِي لَا يُرْتَجَى سِوَاهُ

يُذِيعُ دَمْعَ الْعَيْنِ مَا فِي رُوعِهِ (١٩) وَيَكْشِفُ الْمَكْنُونِ فِي ضُلُوعِهِ

كَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدٍ بَائِسٍ (٢٠) يَنْدُبُ سُعْدَى عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ

حَدَا بِكَ الْحَادِي فَقُلْ: لَبَّيْكَ (٢١) إِنِّي إِلَهِي تَائِبٌ إِلَيْكَ

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٢).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٨٢).

يَا رَبِّي ارْزُقْنَا تَمَامَ حُبِّكَ (٢٢) وَهَبْ لَنَا مَا نَرْتَجِي مِنْ قُرْبِكَ

وَاعْفِرْ لَنَا وَعَافِنَا مَوْلَانَا (٢٣) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي آخِرَانَا

قَدْ انْتَهَى بِحَمْدِ رَبِّي نَظْمِي (٢٤) وَبِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ خَتْمِي

